انتقام الأميرال

للقصصي الفرنسي أرنست دوديه
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

كان القصر العتيق يجثم كالحصن الجبار فوق صخرة عظيمة هائلة على سيف البحر . وكانت الشمس حينذاك تضيّف للغروب وتنحدر رويداً من شارف السماء ، إلى ما بين الأفق والماء . وقد سالت حولها أباطح الدم ، وارتسم على جبينها الكلال والأين . ويشرف القصر أيضاً على الطريق الممتد إلى « برست » وعلى قارعة هذا الطريق تقع الميناء وقد أطلت من ورائها سوارى السفن ومداخنها مصبوغة بألوان الشفق الزاهى الجميل ... ومن نوافذ القصر الضيقة بان البحر كأنه بساط من سندس واستبرق تجرى عليه السفن بقلاعها التى يهدهدها نسيم الأصيل فتتموج ، وتداعبها الرياح الخفيفة فتترجرج . . . وتعلو من القصر المنيف قباب وأبراج شاهخة فى الفضاء تتحدى الزوابع العاتية والعواصف الهوجاء .. وتحف أغصان الأشجار اللفاء الوارفة بجدران تحركها الرياح العواتى فتبدو كضفائر جافة خشنة لطيف امرأة تضرب فزعاً فى الليل المدلهم . . . وعند ما غسق الليل وأجن السكون فى مسوحه الطاخى الأسحم ، أترعت السماء سحاب ثقال منشئات تحركها العواصف الهوج فى شدة وعنف . وغب عباب الرياح فهاجت الأمواج الصاخبة المزبدة فراحت تصطدم بصخرة القصر الهائلة وتنحسر عنها فيسمع لها زئير كزئير الأسد وهزيم كهزيم الرعد

فى تلك الأثناء كان الأميرال المركيز « دى بك هيلوين » جالساً إلى نضد صغير وضع عليه بضع رسائل عفى على لونها الزمن فاسفر وحال ، وبضع زهور ذاوية ونوط قلادة وشريط من الحرير الأزرق ، وبجوار هذه الأشياء صندوق صغير مفتوح من خشب الأبنوس المطعم بالعاج ، كان ولا ريب يضم تلك الآثار الغرامية المتناثرة على النضد . وتجلت أمارات الحزن العميق على وجه الأميرال بينما لمعت عيناه فجأة ببريق للغضب المسجور

وكان الأميرال رجلا رقيق السن واهن العظم له وجه مغضن بارز العظام ، وعينان غائرتان قد قد انطفأ فيهما التألق والبريق ، وبدان معروقتان عاريتا الأشاجع . وعلى الجملة كان بدنه المنهوك قد ذبل بفعل المرض الذى يفتك به فتكا ذريعاً ولقد فقد أميرال البحر العظيم قوة العزم التى كانت تسبح ثائرة فى دمه وتشع من عينيه . وخفت فيه ذلك الصوت الجهورى المليء الذى كان يمزق العواصف ويطغى عليها . ولم تبق فيه ذرة من القوة التى طالما أعجب بها رجال أسطوله وبحارته من قبل . وأبت الجرأة والبسالة أن تسكنا ذلك الجسم المهدم الفانى ففارقتاه بعد إذ كانتا تفوران فيه فوراناً حينما كان يزخر بقوة الشباب ويموج بفتوة الرجولة . واشتد به السقام حتى صيره هزيلا ناحلا . ولم يبق عليه المرض الجاثم فوق صدره إلا ليعالج هذه الجريمة النكراء التى اكتشف الآن فقط

دليلها الحاسم ، وليرى مدى قدرته على الثأر وهو من الموت قاب قوسين أو أدنى

لقد تسلم صباح اليوم رسالة من (نيس) حيث اعتاد أن يقضي فصل الشتاء من كل سنة ، يقول فيها كاتبها : « لقد خلت أربع عشرة سنة وزوجك ممعنة في خيانتك ، دائبة على العبث بشرفك ؛ ولعلك وحدك الشخص الذي لا يعلم شيئاً عن علاقتها الآثمة بمساعدك السابق الكابتن « فوشيرون » . وإذا أردت على ما أقول شاهداً ودليلا فاذهب إلى مخدع المركيزة ، فهناك من ناحية رأس السرير ترى تحت إحدى الصور المعلقة خزانة في الحائط ، بها صندوق صغير . افتح هذا الصندوق واقرأ ما فيه ، فستنقشع الغشاوة عن عينيك ، وتتبين بوضوح ما غاب عن بصيرتك كل تلك السنين الماضي »

وعزا المركيز هذه السعاية إلى خادم مطرود. لذلك قضي سريعاً على ما أثاره الخطاب في نفسه من شكوك وأوهام، وفرك الرسالة في يمناه وهم بتمزيقها لولا أن حاك الشك في صدره فأرجع الكتاب يتلوه مرة أخرى... وللمرة الأولى في كل حياته مع زوجه تساوره الظنون والريب . وتحامل على نفسه وغادر مضجعه ، ثم راح يجر نفسه جرا ، وفي الخزانة المعين في الكتاب ألفى أدلة الاتهام السود

وراح يتمثل ويعجب كيف مرت عليه هذه السنون الطوال وهو غارق في لجج هذا الوحل دون أن يدري ... ها هو ذا يمضي إلى مثواه الأخير تكتنفه قرائن الجريمة الدنسة التي اكتشفها اليوم فقط هازئة ساخرة... فكيف إذن يتسنى له الثأر لنفسه من هذين المجرمين قبل أن ينطفئ سراج حياته الخافت الضئيل

يا للخيانة ويا للغدر ! أزوجه التي شملها بحبه ووهب لها كل قلبه ؟ ! ومرؤوسه الذي أسطره بوابل من عنايته ، وغمره بفيض من صداقته .. يا للعار ويا للدرن ! أنسي هذا السافل الخؤون ، هذا الجاحد الكنود ... أنسي كيف كان يرعاه كابنه وزيادة ؟ وهذه الشقية زوجه ؟ لا نكران أنه اقترن بها والفرق بين عمريهما جد كبير. إذ كانت في العشرين وهو في الخمسين ... بيد أنه ليس ثمة من ينكر أيضاً أنه انتشلها من وهدة اليتم والمسغبة ، وأضفى عليها لقبه المجيد التالد وقلبها في ثرائه الواسع ، وضمن لها الحماية والرعاية في حياته ، وسيخلع عليها من تراثه درعاً يقيها من بعده عدوان الناس وغدرات الزمن . أبداً ما أرغمها امرؤ على الزواج منه ، بل كان هذا عن اختيار منها ورغبة ... ولم يكن يوماً ليبخل عن تلبية رغبة لها مهما صعبت وشقت . فالصيف في الريف الجميل الساحر ، والشتاء في أرفع فنادق باريس الفواخر . أو إذا شاءت في قصره العظيم في « نيس » . في كل حفل كانت تبدو زينة الأتراب والصواحب . في كل جمع كان يعلو بها اسم زوجها إلى أرفع مكان وأسمى منزلة بين سائر الفتيات والعقائل . وبينا كان يثق في وفائها وإخلاصها ويعجب بجمالها وفتنتها ويتيه لسحرها وأنوثتها ، إذا هي تخونه وهو لا يدري

لقد خدم بلاده أربعين سنة سوياً . حارب في أفريقيا وفي المكسيك ، وحاز أرفع القلائد والأوسمة وجلب المجد والفخار لابنه ... ثم ماذا بعد كل تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال وطيب المآثر ؟ عار تجلبه عليه هذه المخلوقة الشقية وهو من الموت على شفا جرف هار

وليت الأمر قاصر على هذا فحسب ، بل جرته إلى شك مظلم يتخبط فيه حتى ليكاد يذهب عقله فيمضي إلى رمسه مخبولا . ابنه « باتريك » زهرة

أمه وعمره الثاني ... أبنه هو ، أم ابن غريه لويجرون ؟ باتريك . لقد شب ونما في قصره العتيد حيث تقضي أمه كل شتاء وحيث كان يذهب هو ليلاقيه ويتحلى من رؤيته . إنه يبدو قوياً كغصن شامخ فتي ، ويتملى الزهو والكبرياء في نظراته ، ويبدو الصلف والخيلاء في لفتاته ، وتنطق ملامح وجهه بقوة العزم وشدة المراس . يا له من إله صغير من آلهة القوة والجمال ! خير خلف لأشرف سلف . ومما زاد الرجل تعلقاً بابنه وحباً له أنه ورث عنه قوة العزم وصلابة الرأي وثبات الجنان

والآن تقضي هذه الجريمة التي اقترفتها زوجه على كل تلك الذكريات السامية حول ابنه وذلك الاعجاب الذي يجنه الرجل لوحيده

وأمسك الرجل التعس رأسه الثائر بين كفيه كأنه يمنعه من الانفجار، وسرت حمى الغضب في دمه فنمنم وهو في تلك الحال من اليأس والضعف والمرض

— سأنتقم لنفسي ... سوف أثأر لشرفي ...

ولكن كيف ؟ أيقتل ذينك اللذين لوثا اسمه ولطخا شرفه ، وكيف السبيل إليهما وهذه الفراسخ المديدة تفصلهما عنه . فلا هو يستطيع أن يبلغهما . ولا هما يبالغيه قبل أن يموت ... وأوغل في سبل الانتقام الكثيرة المتشعبة ... وأعطش الليل ولما يهتد فكره إلى سبيل يبلغه طيته فيشفي غليله ... واستلقى على الفراش بقلب ممزق وأضلع تكتنز ناراً تكاد تأتي على بقايا جسمه المحطم

وعند ما انصدع عامود الفجر أقبل طبيب الطوافة « المنيد » التي اعتلاها الأميرال طويلا ، ليعود رئيسه العليل وذعر لدى رؤيته وجه رئيسه الشاحب المتقع ودهش لتقدم المرض السريع في يوم وليلة ... ونم وجهه عن ذعره ودهشته فقال الأميرال :

— قل إني انتهيت يا دكتور

— لم يضع الأمل بعد يا سيدي ... إنك في حال سيئة ولكن ...

— لا تراوغني . لقد صمدت للموت مراراً ، ولا أود أن يأخذني هذه المرة على حين غرة . قل الحق إني آمرك ...

فظل الطبيب صامتاً لا ينبس دقيقتين قال بعدهما:

— سيختارك الله هـذا المساء على الأكثر يا سيدي إن لم تحدث معجزة

وتلقى الأميرال الصدمة بكل ثبات ... قال

— حسن ... وستمود طبعاً مرة أخرى ... أليس كذلك ؟

— بانتأ كيد يا سيدي الأميرال . ألا تحب أن نخطر سيدتي المركيزة

— وأي جدوى في ذلك وهي في نيس . ثم إني لا أود أن أحملها الحزن فجأة . إنها تعلم أني مريض . وستعرف على كل حال أنها ترملت . ولكن يجب أن يكون هذا بعد أن أموت

فانسحب الطبيب

وقابله باتريك لدى الباب فقال له :

كيف أبي ؟

فلم ينبس الطبيب بل أجابت عنه عيناه . فأسرع الصبي نحو أبيه بقلب جزوع . فنهض الأميرال بجهد جهيد على مرفقه وقال :

— ادن مني يا بني . إن لي حديثاً معك ... إنك في الثانية عشرة من عمرك ياباتريك . ولكني مضطر أن أحدثك كما أحدث رجلا

ولم يأخذ منهما الحديث طويلا . ولكن حينما انتهى ومضت عينا الصبي ببريق من نار ، وتثلج بدنه حتى كأنما انتقلت برودة الاحتضار من بدن أبيه

إلى بدنه . وفى أثناء هذا الوقت القصير انتقل فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة وما تحمل من متاعب وأعباء

وفى السنة التى تلت ذلك . أى بعد موت الأميرال بعشرة أشهر أو تقل راح الناس يلغطون بقرب زواج أرملته من الشاب الوسيم القسيم فوشيرون . تناقلوا ذلك فيما بينهم فى غمز ولمز كأنما كان ذلك عين ما يتوقعون . ويبدو أن العاشقين قد آثرا بعد علاقتهما الدنسة الآثمة أن يرتبطا بعلاقة يقرها العرف والدين

ووصل الكابتن فوشيرون ذات صباح إلى القصر المشيد حيث تنتظره المركيزة مع ابنها بعد إذ قضى زوجها نحبه

وعند ما متع النهار وارتفعت الشمس دخل باتريك على أمه يحمل من الأعباء ما ينوء به عمره الصغير . قال لها :

— أحقا أنك تعدين العدة للزواج من الكابتن فوشيرون يا أماه ؟

فأجابته بصوت مضطرب :

— من أبلغك هذا ؟

لم يتبين الغلام . فاستطردت المرأة

— على كل يجب ألا يستجوب الغلام أمه

— إنى لا أقبل مهما يكن الأمر أن يشغل الكابتن فوشيرون مكان أبى

— لا تقبل ! ماذا تقصد بهذا الهراء ؟

ثم أشارت إلى الباب غاضبة واستأنفت

— أخرج من هنا حالا يا سيدى

فانصرف من لدنها إلى غرفته ، ثم غادرها بعد بضع دقائق إلى غرفة فوشيرون واقتحمها دون استئذان واضعاً إحدى يديه فى جيب بنطلونه

وكان فوشيرون يحلق لحيته أمام مرآة ، فاستدار نحو باتريك وقال :

— إن اللياقة تقضى بدق الباب قبل الدخول

— إنه بيتى ياسيدى . ومن حق أن أدخل أية غرفة فيه بدون دق ولا استئذان . ثم إن لى حديثاً معك

— لك حديث معى ... تكلم

— إنى أعلم سبب وجودك هنا . وإن ما تبغيه لا يمكن أن يتم . ويجب أن ترحل الليلة على ألا تعود أبداً . إننى أمنعك من الزواج بأمى

— إنك مجنون ولا ريب أيها الطفل

— من الخير لك أن تطيعنى

فشحب وجه فوشيرون من شدة الغضب . ووميضت عيناه من فرط الغيظ . قال :

— أخرج أيها الغرير وإلا عركت أذنيك

واتجه نحو باتريك رافعا يده . فتراجع الغلام عنه ثم وأخرج من جيبه شيئا كان يخفيه ، مسدساً ورفع به ويده . ضغط الزناد ، فانطلق

فانشق صدر فوشيرون عن صرخة هائلة دوت فى سكون القصر العميق . وترنح ثم سقط جثة هامدة وقد اخترقت الرصاصة جبينه ...

وأقبلت المركيزة على عجل ورأت كل شىء ... ثم صرخت تقول بعد أن ألقت بنفسها على ابنها وجردته من سلاحه .

— ماذا فعلت أيها الشقى ؟

وتركها باتريك تأخذ منه السلاح ثم قال : وقد رآها ترتمى على الجثة تبكيها وتندبها :

— لقد أنبأنى أبى قبيل وفاته أن هذا الرجل عدو لى وعدو لك ، وأوصانى بحمايتك من شره وغدره حتى ولو أدت الحال إلى قتله . ولقد نفذت وصية أبى .

ثم أشيع بين الناس أن الكابتن فوشيرون مات منتحرا

محمد عبد الفتاح محمد